خطبة البلوطي:

وقد اقترن اسمه بحادثة جليلة وذلك حين وفدت سفارة من القسطنطينية سنة ٣٣٦هـ[1] فاحتفى الناصر لقدومهم في يوم مشهود، وقد أفاضت المصادر في الحديث عن ذلك اليوم، وأقيم احتفال بالغوا فيه بإظهار معالم الجاه والسلطان، أمام هذه السفارة، وتبادلوا فيها الهدايا، ثم إن الناصر جلس إلى قصر قرطبة، لدخول وفود الروم عليه، وكان المجلس عامراً بالحاضرين، ثم إن الناصر أحب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه، لتذكر جلالة مقعده، وعظيم سلطانه، وتولى ابنه الحكم ذلك، فأوعز إلى الفقيه محمد بن عبد البر القرطبي، بإعداد خطبة بليغة تناسب ذلك المقام، وكان من الخطباء البلغاء، فلما قام يحاول التكلم بما رأى هاله وبهره هول المقام، وأبهة الخلافة، فلم يهتد إلى لفظة بل غشي عليه وسقط إلى الأرض.

فقيل لأبي علي القالي البغدادي. وهو حينئذ ضيف الخليفة الوافد من العراق، وأمير الكلام وبحر اللغة: قُم فارقع هذا الوهي، فقام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على نبيه ﷺ ثم انقطع القول بالقالي، فوقف ساكتاً مفكراً في كلام يدخل به إلى ذكر ما أريد منه.

فلما رأى منذر بن سعيد ذلك قام من ذاته، فوصل افتتاح أبي علي لأول خطبته بكلام عجيب يَسُحه سحاً كأنما كان يحفظه قبل ذلك بمدة فقال:

"أما بعد حمد الله والثناء عليه، والتعداد لآلائه، والشكر لنعمائه، والصلاة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه، فإن لكل حادثة مقاماً ولكل مقام مقالاً، وليس بعد الحق إلا الضلال، وإني قد قمت في مقام كريم، بين يدي ملك عظيم، فأصغوا إلي معشر الملأ بأسماعكم، والقفوا عني بأفئدتكم، إن من الحق أن يقال للمحق صدقت، وللمبطل كذبت، وإن الجليل تعالى في سمائه، وتقدس بصفاته وأسمائه، أمر كليمه موسى صلى الله عليه نبينا وعلى جميع أنبيائه، أن يذكر قومه بأيام الله. جل وعز. عندهم، وفيه وفي رسول الله ﷺ أسوة حسنة، وإني أذكركم بأيام الله عندكم، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي لمت شعثكم، وأمنت سربكم، ورفعت فرقكم، بعد أن كنتم قليلاً فكثركم، ومستضعفين فقوّاكم، ومستذلين فنصركم ولاّه الله رعايتكم، وأسند إليه إمامتكم أيام ضربتْ الفتنة سرادقها على الآفاق، وأحاطت بكم شُعلُ النفاق، حتى صرتم في مثل حدقة البعير، من ضيق الحال، ونكد العيش والتغيير، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء، وانتقلتم بيمن سياسته إلى تمهيد كنف العافية بعد استيطان البلاء"... ثم عاد إلى

---

١ المرقبة العليا، ٦٦. نفح الطيب، ٣٦٨/١ . ٣٧١. أزهار الرياض، ٢٧٢/٢ . ٢٧٦. وهناك خلاف في المصادر حول من كان مطلوباً منه أن يخطب أولاً، فمنهم من يجعل ذلك هو القالي.

الحديث عن استتباب الأمن، وتحصين البلاد، وإصلاح الأمور بعد اضطرابها وكيف أن الناصر استطاع قمع الفتن، ولمّ شعث المسلمين بفضل صبره وحنكته، وبصيرته الثابتة، وسلطانه القاهر، حتى قصدته الوفود، ودانت له الملوك، وختم بالدعوة إلى وحدة الكلمة فقال:

"فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به، فإنه تبارك وتعالى يقول: ﴿وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ وقد علمتم ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين، وصنوف الملحدين، الساعين في شق عصاكم، وتفريق ملاكم، الآخذين في مخاذلة دينكم، وهتك حريمكم، وتوهين دعوة نبيكم، صلوات الله وسلامه عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين، أقول قولي هذا وأختم بالحمد، مستغفراً الله الغفور الرحيم فهو خير الغافرين".

وتروى تسعة أبيات قالها بعد هذه المناسبة،[1] يصف فيها كيف أنقذ الموقف العصيب، وفيها نبرة من الفخر والعجب ببراعة خطبته، مطلعها:

مقال كحد السيف وسطَ المحافل قرنت به ما بين حق وباطل

وقد قال عبد الرحمن الناصر معجباً بما رأى: "لقد أحسن ما شاء، فلئن كان حبّر خطبته هذه، وأعدّها مخافة أن يدور ما دار، فيتلافى الوهي، فإنه لبديع من قُدرته واحتياطه، ولئن كان أتى بها على البديهة لوقته فإنه لأعجب وأغرب".[2]

ومن هنا فإن وصف القدماء إياه بأنه كان خطيباً مصقعاً،[3] يتحقق مع ما رأينا، من بلاغة خطبته، وبراعته فيها.

وأما خصائص الخطبة فهي تعرب عن نفسها بوضوح:

بدأت بتقاليد الخطب الإسلامية منذ عصر الرسالة، بالحمد والثناء على الله سبحانه وتعالى، والصلاة والسلام على رسوله الكريم، ثم ختمت بما بدأت به، صلاة على الرسول الكريم، وحمد لله سبحانه وثناء عليه، وفيها إشادة وتمجيد بمقام خليفة المسلمين الناصر، يجلها في موازنة بين العهد السابق له وما تحقق في عصره، من استقرار وأمان.

جاءت لغتها سهلة مرسلة ميسورة، تقوم على أساس الجملة القصيرة والعبارة الموجزة، وهي لا تعتمد التزويق اللفظي المتكلف، وفيها بعض فنون البديع غير المتكلفة من جناس وطباق واقتباس من القرآن الكريم اقتباساً مباشراً تارة وإشارياً (غير مباشر) تارة أخرى، كما جاء في أصل الخطبة الذي تقدم جزء منه آنفاً، فمن النوع الأول حيث

---

١ المعجب، ٥٦ . ٥٧. النفح، ٣٧٣/١. وينظر بحث د. حازم عبد الله خضر، القاضي الأديب منذر بن سعيد البلوطي، مجلة آداب الرافدين، جامعة الموصل، العدد ٤، سنة ١٩٧٢، ص ١٧٠ . ١٩٠.

٢ النفح، ٣٧٣/١ . ٣٧٤.

٣ جذوة المقتبس، ٣٤٨.

اقتبس من سبع آيات في قوله تعالى:[1] ﴿ليقضي الله أمراً كان مفعولاً﴾، وقوله:[2] ﴿ولن يخلف الله وعده﴾، وقوله:[3] ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم﴾، وقوله:[4] ﴿لكل نبأ مستقر﴾، وقوله:[5] ﴿لكل أجل كتاب﴾، وقوله:[6] ﴿خسر الدنيا والآخرة ذلك الخسران المبين﴾، وقوله:[7] ﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾.

وجاء النوع الثاني كذلك في ثمانية مواضع من خطبته حيث اقتبس إشارياً من قوله تعالى: ﴿فماذا بعد الحق إلا الضلال المبين﴾،[8] وقوله: ﴿أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله﴾،[9] وقوله: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة﴾،[10] و﴿لقد كان لكم فيه أسوة حسنة﴾،[11] وقوله: ﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً فكثركم﴾،[12] ومن قوله: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً.. فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾،[13] ومن قوله: ﴿يأتين من كل فج عميق﴾،[14] ومن قوله: ﴿واستغفروا الله إن الله غفور رحيم﴾.[15]

وفضلاً عما تقدم فإنه استخدم ألفاظاً وعبارات قرآنية من مثل قوله: كان بأسكم بينكم، وشفى صدوركم.

كما اعتمدت الخطبة على إيراد المعنى الواحد بأساليب مختلفة بالاعتماد على الترادف، والمعاني بشكل عام كانت واضحة ليس فيها تعقيد أو غموض.. وتنوعت أساليبها بين جمل خبرية وإنشائية كالأمر والنهي والاستفهام والنداء وهي أقل، واعتمادها على أساليب التوكيد.

وإذا كانت مصادر الأندلس قد حفلت بهذه الخطبة وعنيت بروايتها، فإن ما بين أيدينا من الخطب في هذا العصر قليل جداً، وهذه الظاهرة عامة في سائر عصور الأندلس.

---

١ الأنفال: ٤٢.
٢ الحج: ٤٧.
٣ النور: ٥٥.
٤ الأنعام: ٦٧.
٥ الرعد: ٢٨.
٦ الحج: ١١.
٧ النساء: ٥٩.
٨ يونس: ٣٢.
٩ إبراهيم: ٥.
١٠ الأحزاب: ٢١.
١١ الممتحنة: ٤.
١٢ الأعراف: ٨٦.
١٣ آل عمران: ١٠٣.
١٤ الحج: ٢٧.
١٥ المزمل: ٢٠.

خصائص النثر وأنماطه:

فمن الدارسين المحدثين، أحمد أمين،[1] الذي يرى أن النثر في الأندلس تابع صنوه النثر المشرقي، الذي مرّ بخمس مراحل جعل على رأس كل مرحلة أبرز أعلامها:

وقد حامت أساليب النثر الأندلسي حول هذه المدارس وجارت أساليبها، ولكنها حافظت على شخصيتها ومنهجها لا سيما بعد القرن الرابع الهجري كما سنوضحه فيما بعد.

اتجهت الكتابة في عمومها إلى الإيجاز وعدم الاستطراد، كذلك يلاحظ إلى أنها تأثرت بالمفاهيم الإسلامية في المعاني التي جاءت فيها، غلبت سمة السهولة في الأسلوب والوضوح في الألفاظ، وكانت تتجه إلى جزالة الألفاظ ومتانتها أحياناً قليلة، واعتمدت على الجمل القصيرة، والتقسيم في العبارات، والتقابل بينها واستخدام المترادفات، واستخدام المحسنات البديعية بشكل معتدل دون أن نلمح تكلفاً فيها.

وأكثر ما وصل من نصوص نثرية في هذا العصر لأمراء الأندلس، وكتابهم.. وقد آثر أحد الباحثين[2] نثر عصر الخلافة (٣١٦. ٤٢٢هـ) بدراسة علمية، حيث درس أنماط النثر وجعلها في أحد عشر ضرباً هي:

١. الرسائل الديوانية	٢. الرسائل الإخوانية	٣. المراسلات
٤. المحاورات	٥. الخطابة	٦. الوصف
٧. الهجاء	٨. المواعظ	٩. المناظرات والمنافرات
١٠. الحكايات والرسائل القصصية	١١. المقامات	

وهي موضوعات لا تختلف في كثير عن موضوعات النثر في عصر الطوائف كما

---

١ ظهر الإسلام، ٣/٢٠٤ . ٢٠٥، وإليك هذه المراحل التي ذكرها أحمد أمين ملخصة:

١. الخلفاء الراشدون والأمراء الأمويون، ويتسم أسلوبهم بالجمل المتقطعة القصيرة، والإيجاز التام من غير توسع في المعاني، وتأثرهم بالقرآن الكريم.

٢. عبد الحميد الكاتب (ت١٣٢هـ) وقد قيل فيه أنه أول من أطنب، وأول من جعل الترسل فناً قائماً بذاته، وأول من ولدّ المعاني وأول من استعمل التحميدات، وأول من جعل الكتابة الديوانية صناعة، ومال إلى الموازنة في الجمل في صيغتها وعددها وعدم الاكتراث إلى المحسنات البديعية، وعدم التزام السجع.

٣. ابن المقفع (ت١٤٢هـ) وقد عني ببسط المعاني، وتفصيلها، وتكرير الجمل المتقاربة في معناها، كما عني بالتحليل النفسي وتناول القيم الخلقية في موضوعاته، ولم يلتفت كسابقه إلى الاهتمام بالسجع.

٤. الجاحظ (ت٢٥٥هـ) وتقوم طريقته على أساس استخدام الجمل القصيرة، والفقرات المتقابلة، وتعديد النعوت، واستقصاء أجزاء المعنى، بتأديته بعدة جمل، والإفادة من الترادف في اللغة، لاستخدام أساليب الدعاء، وعدم تكلف المحسنات البديعية، كما تقدم من حيث المعاني، على الاعتماد على الفكاهة والسخرية والتنقل من الجد إلى الهزل، والإطناب.

٥. ابن العميد (ت٣٦٠هـ) وتعتمد طريقته على أساس التزام السجع وعدم الخروج عنه، وقسر الجمل لهذا الغرض، والمبالغة في التزويق اللفظي وفي استخدام المحسنات البديعية.

وقد أضاف د. عبد العزيز عتيق (الأدب العربي في الأندلس، ٤٣٤) مرحلة سادسة وأبرز أعلامها:

٦. القاضي الفاضل (ت٥٩٦هـ) طريقته على أساس طريقة ابن العميد وتوسع فيها بالتزام السجع الطويل المنمق، مع مغالاة في فنون البديع الأخرى، كالجناس والطباق والتورية.

٢ فادي رشيد حلاق نحال، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٤.